الفصل الثالث

موقف الإسلام من الغرب

موقف الإسلام من الغرب

مقدمة:

إن الإسلام دين عالمى، ورسالته موجهة إلى المجتمعات البشرية الأخرى، وإنه يحرص على أن يؤمن كل الناس بالحقيقة ويدخلوا فى السلم كافة. وإن ثقافة الإسلام وحضارته الخاصة به قد شاعت بين الشعوب الأخرى، وكانت لها علاقات مع الثقافات الأخرى.

وإن حضارة الإسلام التى تعيش منذ القرون الثلاثة الأخيرة - فترة الجمود والتأخر - قادرة على استعادة حيويتها لتقوم بحملاتها من جديد. وإن المسلمين وقادتهم مسؤولون بالدرجة الأولى فى هذا المجال وبإمكانية الاستفادة من وسائل العصر العلمى فى هذا المجال.

" وإن روح الإسلام العامرة بالقيم والأخلاق والتسامح والتعاون والوفاء الذى قدمه الدين للناس وهداهم إليه بها فى ذلك الأمان الذى قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان والملل الأخرى وأحاطهم به. فى ذلك التعايش الذى تعايش به الإسلام بمنظومته الرقيقة الخلابة مع كل الأديان والحضارات "

إن المسلم الحامل للشمائل الإسلامية هو رسالة الإسلام إلى الدنيا فى كل مكان، وعلى امتداد الزمان .. هو ذلك الذى يفهم ويدرك أن الإسلام رسالة عالمية - للبشر جميعًا - لأنه دين جاذب جامع .. يحبب ولا ينفر.

وإن مقومات المجد الحقيقى كانت فى روح الإسلام، وإحساس المسلم وشعوره بمجد الإسلام كدين باقٍ إلى ماشاء الله، بيد أن هذا المجد لم يكن ابتعادا بالمسلمين عن هداية الدين الذى آمنوا بأنه دين للعالمين، وأن انفتاحه على العالم انفتاح دعوة وانتشار. رسالة أراد بها الله تبارك وتعالى هداية الدنيا، وجعل للمسلمين واجب نشرها ورعايتها وضمان اتساعها ليطمئن فى واحتها المسلم وغير المسلم، وينال الأمان فيها كل من يفىء إلى ظلها... ولم يكن مرجع المجد إذن لهذه الحضارة الأشد عجبًا، بل إن القرآن الكريم نهى المسلمين عن طلب المجد أو طلب النفوذ أو الاستعلاء، قال تعالى :﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص].

ونحن – العالم الإسلامي – نعانى اليوم كثيرًا من تشويه صورة الإسلام فى الغرب وكما يفهمها صناع القرار السياسي والاقتصادي والعسكري هناك، لأن هذه الصورة المشوهة هى التى جعلتهم يتهمون الإسلام والمسلمين بالعنف وإثارة القلاقل والحروب، ومعاداة الحضارة الغربية رمز التقدم والتنمية، ومعاداة الأخذ بالعلوم الحديثة ومعاداة المنهجية العلمية فى التفكير، لذا كان لابد من طرح مجموعة أساليب أو آليات تنبثق عن سياسات مدروسة بشكل علمى للرد – لتصحيح – صورة الإسلام فى الغرب.

ما الإسلام؟

كان الإسلام – ولا يزال – هدفا لألوان كثيرة من العداء الدينى والسياسى، ولم يتورع أعداؤه عن أن يستخدموا ضده كل الوسائل المادية والمعنوية، بهدف القضاء عليه تمامًا، أو الحد من انتشاره الذى يستقر دائمًا فى قلوب الناس.

هاجمه المشركون فى مكة، واليهود فى المدينة، وعلماء النصارى فى دمشق وبغداد، وكثير من المستشرقين فى الغرب، وكان من أهم دوافعهم لذلك أنه اجتذب إليه العديد من الأتباع الذين وجدوا فيه راحة لنفوسهم، وإقناعًا لعقولهم، ومنهجًا مستقيمًا لحياتهم[1].

فالإسلام يوصى بأن تتم الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يجادل المسلمون أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلا بالتى هى أحسن، ولا يجبر أحدًا على اعتناقه، قال تعالى:﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] . فالإسلام دين لا يهاجم أحدًا، ولكنه قادر على الدفاع عن نفسه، وفى الآونة الخيرة تعرض الإسلام لحملة شرسة، قوامها أنه العدو الجديد الذى ينبغى محاربته، بعد أن تم انهيار الاتحاد السوفيتى "الشيوعية"، واستغل المغرضون فى ذلك بعض التصرفات الشاذة لقلة من أفراد المسلمين، محاولين تعميمها على حوالى مليار و١٢٥ مليون نسمة من المسلمين يعيشون فى شتى أنحاء العالم .

والدين فى اللغة: الطاعة والجزاء، وفى الاصطلاح: الطاعة والدينونه لله بالانقياد والخضوع لشريعته، والإسلام هو دين الله الذى أرسل به جميع رسله وأنبيائه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران :١٩] ؛ لذا لا يقبل الله من أحد من عباده دينا

---

(١) محمد شفيق وآخرون: الإسلام بين الحقيقة والادعاء "رد على أهم الافتراءات المثارة ضد الإسلام"، الشركة المتحدة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥.

غيره، قال تعالى:﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران] ، فكلمة الإسلام بمعناها الاصطلاحى للدين تحتوى على الأديان السماوية جميعها التى أنزلها الله على أنبيائه من آدم إلى محمد ﷺ، والإسلام ليس خاصًا بالدين الذى قام بتبليغه محمد ﷺ فقط ، بل هو اسم مشترك لكل الأديان السماوية، فالدين الإسلامى فى جوهره واحد يهدف لسعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] . وقد ورد عن دين إبراهيم قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف]. وكان خطاب نوح عليه السلام لقومه:﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس].

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالإسلام فلبى مسرعًا، قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة] . والأنبياء الذين كانوا يحكمون بالتوراة كانوا مسلمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة :٤٤]، وسمى دين الله إسلامًا ؛لأنه استسلام وانقياد وخضوع لله ، وفى هذا الإطار أمر الله رسوله محمدًا ﷺ بمثل ما أمر به الأنبياء السابقون، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام].

والإسلام دين الكون كله، فالكون كله خاضع ومستسلم لله ، وفى ذلك يقول تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [آل عمران]. ويمتاز الإنس والجان عن بقية المخلوقات أن إسلامهم لا يكون إلا عن طواعية واختيار، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ

اَهْتَدَوا﴾ [آل عمران : ٢٠]، أما بقية الكون فهو مسخر مسير.

وقد أصبح الإسلام عليًا على الدين الخاتم الذى نزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ؛ لأنه الدين الصحيح الباقى الذى ارتضاه الله للبشرية، وأمر الناس جميعًا باتباعه والانقياد إليه، دون غيره. والدين الإسلامى المنزل على محمد ﷺ دين شامل كامل فى عقيدته وشريعته، وهو يقوم على الحق والعدل، وتنبثق منه قواعد عظيمة وأسس قوية سليمة، وأنظمة تشمل الحياة الإنسانية بأسرها ، وكل ذلك يشكل وحدة واحدة مترابطة فيما بينها، لا يمكن أن تسمى بغير الإسلام[1] .

والإسلام هو دين الحوار والإقناع والاقتناع، لأسباب كثيرة، أولها :أنه يحترم العقل الإنسانى ويحث على استخدامه، فنجد ذلك فى قولـه تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة]، ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيٓ أَنفُسِهِم ﴾ [الروم : ٨]، ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم]. وفى المقابل ينكر الله– سبحانه وتعالى– على أقوام لا يستخدمون عقولهم ،فيقول تعالى:﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس]، بل يضعهم فى درجة دون مستوى الحيوانات العجماء ،فيقول تعالى:﴿ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف] ،

وقال تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، فى الدلالة على عمق مبدأ الحوار والتعايش فى مفهوم الإسلام.

الإسلام والعلمانية:

إن الإسلام يربط بين الدنيا والآخرة، فيجعل الأولى مزرعة الثانية، فالإسلام - إن صح التعبير- كطير يحلق بجناحين: جناح يضرب به لتحقيق الاستخلاف فى الدنيا، وجناح تعبدى يحقق به ثواب الآخرة. بينما العلمانية طائر بجناح واحد، بل جناح مكسور بلا ريش، فالإسلام يستوعب العلمانية، لكن العلمانية لا تستوعب الإسلام، ومن المغالطات المزرية مايقوله البعض من أن الدين والدنيا طريقان منفصلان، والاشتغال بأحدهما خراب للآخر، قال تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ

(١) عمر سليمان الأشقر: نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٢٠٢، مرجع سابق.

نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧]، فالعلمانية تقطع صلة الإنسان بالآخرة، وترجح كلام الخلق على الخالق، والقانون الوضعى على القانون الإلهى؛ ولذلك فإنها لم تحقق الهدف الدنيوى بتوفير جنة الدنيا، والدليل عل ذلك: فشل النظريتين الماديتين العلمانيتين الاشتراكية، والرأسمالية، فالاشتراكية خلقت مجتمعات محرومة وفقيرة بائسة كما حدث فى روسيا. والرأسمالية لم يجن منها المجتمع الرأسمالى الغربى إلا مزيدًا من الفراغ الروحى والفساد الأسرى والانحطاط الاجتماعى والأخلاقى.

بين العولمة والعالمية:

وربما كان معنى العولمة في ظاهره يقترب من معنى (العالمية) الذي جاء به الإسلام، وأكده القرآن في سوره المكية مثل قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص] ، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان].

ولكن هناك في الواقع فرق كبير بين مضمون (العالمية) الذي جاء به الإسلام، ومضمون (العولمة) الذي يدعو إليه اليوم الغرب عامة، وأمريكا خاصة.

فالعالمية في الإسلام تقوم على أساس تكريم بني آدم جميعا ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء :٧٠] . فقد استخلفهم الله في الأرض، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه. وكذلك على أساس المساواة بين الناس في أصل الكرامة الإنسانية، وفي أصل التكليف والمسؤولية، وأنهم جميعا شركاء في العبودية لله تعالى، كما قال الرسول ﷺ : « **يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى والعمل الصالح**»[1] .

وهو بهذا يؤكد ما قرره القرآن في خطابه للناس، كل الناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات].

---

(١) على بن أبى بكر الهيثمي: مجمع الزوائد ، ج٣، ص٢٦٦ ، دار الريان للتراث ، القاهرة ،١٤٠٧.

أما (العولمة) فالذي يظهر لنا من دعوتها اليوم: أنها فرض هيمنة سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية من الولايات المتحدة الأمريكية على العالم، وخصوصا عالم الشرق والعالم الثالث، وبالأخص العالم الإسلامي.

إنها لا تعني معاملة الأخ لأخيه، كما يريد الإسلام، بل ولا معاملة الند للند، كما يريد الأحرار والشرفاء في كل العالم، بل تعني معاملة السادة للعبيد، والعمالقة للأقزام، والمستكبرين للمستضعفين [١].

فالعولمة : تعني تغريب العالم أو بعبارة أخرى: (أمركة العالم)، إنها اسم مهذب للاستعمار الجديد الذي خلع أرديته القديمة، وترك أساليبه القديمة، ليمارس عهدا جديدا من الهيمنة تحت مظلة هذا العنوان اللطيف: (العولمة).

الإسلام والحضارة:

لقد غاب عن كثير من المبهورين بحضارة الغرب أن الحضارة الإسلامية على الرغم مما أصابها، لا تزال قائمة تناطح كل الحضارات. إن كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر لا يشك لحظة واحدة فى أن الرعيل الأول - وهم الرسول ﷺ وأصحابه - هم أهل الحضارة والمدنية فى الأوائل والأواخر، وهم لم يشيدوا ناطحات السحاب، ولم يقيموا القلاع والحصون ، ولم يخترعوا ما اخترعه غيرهم ، ولكنهم هم الأرقى والأعلى والأفضل فى الحضارة والمدنية، ولا عجب فى أن يسمى الرسول ﷺ البلدة المتواضعة فى بيوتها وشوارعها ومسجدها ومزارعها بالمدينة بعد أن كانت تسمى يثرب، كأنها هى المدنية والحضارة [٢] . وفى هذا إشارة إلى أن المدنية والحضارة ليست بالمبانى والقصور والمخترعات، لكن بالدين الحق الذى يقيم الحق ويقول الحق ويدعو إلى الحق ودار الحق.

فالثقافة تعد قاعدة الحضارة وأصلها والحاكمة لغايتها، فإذا كانت ثقافة الأمة ثقافة صالحة فى معتقداتها وأخلاقها وتشريعها وقيمها وموازينها، كانت حضارتها حضارة سوية صالحة مستقيمة. فهناك حضارات سوية صالحة وحضارات شركية كفرية ضالة، وهذه الحضارات حدثنا الله سبحانه وتعالى عنها فى القرآن الكريم.

---

(١) يوسف القرضاوي: المسلمون والعولمة، مرجع سابق: ص ١٣.
(٢) عمر سليمان الأشقر: مرجع سابق: ص٣١.

فمن الحضارات السوية الصالحة "حضارة ذى القرنين" الذى حدثنا الله عنها فى سورة الكهف، فقد أخبرنا الله أنه مكن له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببًا ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الكهف]. والتمكين يحتاج الى المعرفة العلمية الواسعة التى تبنى بها القوة المادية ويتعرف بها على التحرك فى التجوال والأسفار، وبالعلم تخترق الصحارى، وتجتاز الجبال، وتركب البحار، وقد نجح ذو القرنين هو وجيشه فى الوصول إلى أقصى الغرب وأقصى الشرق، قال تعالى:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ [الكهف :٨٦]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ ﴾ [الكهف:٩٠]. وقد حدثنا القرآن كيف استعمل ذو القرنين ما آتاه الله من قوة فى إقرار العدل وعمارة الأرض، ورد الظلم ومحاربة الفساد، وهذا واضح فى سورة الكهف، الآيات [٨٦-٨٨].

ومن الحضارات الخيرة، الحضارة التى بناها سليمان عليه السلام، فقد دعا الله أن يؤتيه ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ [ص :٣٥]. وأوتى سؤله، لقد سخر الله له الجن والإنس والطير، وعلم منطق الطير، وسخرت له الريح تحمله وجيشه رخاء حيث أراد، فاستعمل ذلك كله فى الدعوة إلى الإسلام، وإقرار الحق، ومحاربة الباطل.

وقد أثمرت دعوته، فقد دخل الإسلام فى قلب ملكة سبأ، ودخل فى الإسلام قومها، بعد أن كانت تلك الآلهة الباطلة تصدهم عن الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النمل] . ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل].

وهناك حضارات شركية ضالة، تسخر علمها وما وصلت إليه من مخترعات لظلم الناس وقهرهم، والإفساد فى الأرض، ومن ذلك حضارة اليونان، الرومان، الفراعنة، الهنود، ولقد حدثنا الله عن تلك الحضارات التى حادت طريق الحق، فاستحقت ان تبيد وتهلك: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟

فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر].

نعم عندما هيئت للمسلمين الإمكانات والقدرات بنوا حضارة مادية عظيمة فاقت كل الحضارات، لأنها قامت على أصول قوية من الإيمان والتوجه إلى الحق، وعندما كان يزيغ أهلها عن قواعد الحضارة الإسلامية كانت ترسل عليها العواصف الهوج لتدمر من تلك الحضارة البنيان كما وقع للأمويين والعباسيين وأهل الأندلس والعثمانيين، لتقوم مرة أخرى حضارة إسلامية جديدة على أصولها الصحيحة من الكتاب والسنة [1].

وبهذا الربط وعلى هذه الشمولية، قامت دولة الإسلام، وأشرقت شمس حضارتها على العالمين، وتراثها هو المصدر الأصلى لكثير من العلوم التى اقتبسها الأوربيون وطوروها، ولأن الإنساس الغربى لا يفرق بين الإسلام والمسلمين. فالمسلمون هم المرآة التى تعكس صورة الإسلام، ومن المؤسف أن يعيش الإسلام غربته فى ديار المسلمين وفاقد الشىء لا يعطيه.

منطلقات الإسلام للدعوة والعالمية:

الإسلام فى نصوصه وفى مهجته وفى روحه دين هداية، التى هى رسالة الإسلام الى الدنيا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]. والنبوة المحمدية نبوَةُ هداية، والهادى اسم من أسماء الله الحسنى، بعث رسوله محمد ﷺ بالهداية، إذ يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة]. فالله يوصيه ليقول للناس: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام].

فالرسول ﷺ لا يتطلع لمجد أو مُلك أو جاه، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى

(١) عمر سليمان الأشقر: مرجع سابق، ص٣١.

ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام].

فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية، جاءت لكل الناس، ولكل الشعوب وهى دعوة للإنسانية جمعاء، يقول الله عز وجل:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].ويقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، ويقول تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

جاء الإسلام بعقيدة جامعة هدفها الإنسان، دون تفرقة بين إنسان وإنسان، وبين قوم وقوم، وبين جنس وجنس، يقول تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

والجنس البشرى جنس مكرم على كثير من خلق الله عز وجل، قال تعالى فى ذلك: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء].

ومما لا شك فيه أن هذا التكريم استوعب نوعى الجنس البشرى، فالرجل مكرم باعتباره إنسانا ، والمرأة مكرمة باعتبارها إنسان كذلك، ولقد كرم الله المرأة ولم يظلمها فيما تستحقه من حقوق ولم يحملها مالا تطيق؛ لأنه سبحانه وتعالى خالقها وهو أعلم بما يناسبها من حقوق وما يتوافق معها من واجبات، قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]، فقضية العدل والإنصاف مع المرأة ينبغى أن تكون متكاملة، فلا ينظر لها من جانب الحقوق فحسب بل يمتد النظر ليشمل جانب الالتزامات (الواجبات)، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنسان عبثًا ليمتعه بمجموعة حقوق دون أن يطلب منه واجبات، فيقول تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون] .

لذا فقد دخل على المسلمين فيما دخل عليهم من الغرب كثير من التشكيك بمواقف الإسلام الاجتماعية ، وبخاصة نظرته إلى المرأة فيه ومكانتها منه.

فقد أخذ كثير من الناس بذلك وظنوا بما يرون من شأن المرأة فى الغرب اليوم، أن المرأة

المسلمة لا تجد فى الإسلام حقوقها، ولا تظهر فيه بمكانتها من حيث هى هذا الكائن البشرى الذى يؤلف نصف المجتمع، ويشارك أعظم مشاركة فى إقامته وتوجيهه[١].

والإسلام لم ينزل إلى أمة محمد ﷺ فقط، ولا لقوم بخاصة أو لمكان بخاصة، وإنما اتجه إلى العالمين ،إلى الإنسان حيث كان، لا أحد مختص بالدعوة والهداية دون أحد، ولا مجد لأحد على أحد.. الإنسانية أسرة واحدة، مردها إلى أصل واحد[٢] ، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا ﴾ [النساء :١] ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وكان انبعاث الرسول ﷺ منعطفًا تاريخيًا فى حياة الناس جميعًا وتحولًا حضاريًا متميزًا فى نهج حياتهم وتعاملهم، تحول الخطاب فيه من (قومية) الأديان ومحدودية مقاصدها – إذ كان الرسول ﷺ يبعث لقومه فقط – الى عالمية الإسلام وشمولية وسعة دعوته وتكامل مقاصده، ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها الى وحدة الأسرة البشرية وتعاون مجتمعاتها، حيث سمع الناس لأول مرة فى تاريخهم الإنسانى فكرة المجتمع الإنسانى الواحد[٣] . يقول الرسول ﷺ : «يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب ألا لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٤] .

والقرآن يخاطب المسلمين، فيقول لهم: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة] .

وفى هداية الإسلام للدنيا، جعل العقل مع الضمير والوجدان منارا لهداية الإنسان حيث كان، وجعل العلم روح الإسلام ليقدم للإنسانية كلها حياة يلتئم فيها نبضها بلا

---

(١) بشير عبد البارى: نظرة الإسلام الى المرأة،مقدم للمؤتمر العام السابع عشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، وعنوانه "انسانية الحضارة الإسلامية"،(١٨ – ١١ ربيع الأول ١٤٢٦هـ / ١٧ – ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م)،القاهرة ،ص٩٨٣.

(٢) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص١٠٢.

(٣) محمد على الجوزو: الحضارة الإسلامية حضارة عالمية، مقدم للمؤتمر العام العاشر للمجلس الاعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، بعنوان"الإسلام والقرن الحادى والعشرون"،١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩، ص٢٠٨.

(٤) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد، ٣/ ٣٦٦.

استعلاء فى هذه الحضارة التئام المسيحى مع المسلم لعمارة الحياة ،فلم تتباه هداية الإسلام على غير المسلم، وفتحت للجميع فرصًا غير محدودة للعطاء للأسرة الإنسانية .. فبزغ فى دوحة الإسلام نجوم لا ينتمون إليه، أعطوا فى مناخ عماده الإخاء والمحبة والتسامح والسلام.. يظل الجميع بلا تمييز ولا إستعلاء منظومة أخلاقية عنيت كل حبة من حباتها برعاية الآخر .. هذا الجانب (رعاية الغير) ملحوظ فى كل سجايا الإسلام، كالعدل وانتواضع، والعفو، والسماح، والتعايش، والإحسان، والصفح، وكفالة اليتيم، والأسير، والمسكين، والتكافل، والإخلاص .. وغيرها، مثلما هو ملحوظ فى النواهى التى حرمت وحظرت الظلم، وبخس الكيل والميزان، وكتمان الشهادة، وقول الزور وغير ذلك من المنكرات[1] . هذه الباقة من الأوامر والنواهى وجهت عنايتها للأغيار؛ لأنها فى غايتها السامية تحفل بالآخر وترعاه وتصونه من أن يلحق به أذى أو مكروه ، ومن ثم فالإسلام زرع فى وجدان المسلمين هذا العطاء الواجب بلا مَنٍّ ولا أذى.

ولأول مرة تتلقى مسامعهم مبادئ وقيم النهج العالمى الواحد، الذى يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد ،وإلى إقامة العدل بينهم، والتواد والتراحم فى معاملاتهم، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر وتعاطى الخبائث، يقول تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل] .

إنها دعوة عالمية بكل معنى الكلمة، تهدم حواجز التعصب والعنصرية لأنها تتوجه بالعبادة إلى إله واحد، هو مصدر الرسالات السماوية كلها، لا فرق بين رسول ورسول ونبى ونبى ؛ لأنهم جميعًا يدينون بعقيدة واحدة.

فالإسلام يدعو إلى التسامى الخلقى عند التصدى للدعوة إلى الله ويضرب المثل الأعلى لذلك بالرسول ﷺ، يقول الله عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران] .

لكن هذه «العالمية الإسلامية» لاتعنى – فى الرؤيا الإسلامية – انفراد الحضارة

(١) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص١٠٣.

الإسلامية بالعالم وإلغاءها للآخر الحضارى، بل إنها تعنى التفاعل والتدافع والتسابق مع الآخر، فى ظل التأكيد على أن التعددية الحضارية والتنوع الثقافى والأخلاقى فى الشعوب والأمم والقبائل وفى الألوان والأجناس والأعراق، وفى الألسنة واللغات – ومن ثم القوميات – وفى الشرائع والملل الدينية، وفى المناهج والمذاهب والثقافات والفلسفات والحضارات، أن كل هذا التنوع والتمايز والاختلاف هو القاعدة الطبيعية، والقانون التكوينى، والسنة الإلهية التى لا تبديل لها ولا تحويل[1] . إن أية حضارة من الحضارات إنما تتميز عن غيرها ببصمتها الثقافية، وإن أية ثقافة من الثقافات إنما تتميز عن غيرها برؤية إنسانها للكون، ولمكانة هذا الإنسان فى هذا الكون.

فالناس شعوب وقبائل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] ، والناس ألسنة ولغات وقوميات والوان وأجناس ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] ،والناس يتنوعون الى ديانات ومعتقدات ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود:١١٩] ، والناس يتمايزون فى الشرائع والثقافات والحضارات﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]،والناس سعيهم شتى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [الليل]،والتدافع والحراك والتسابق هو سبيل رأب الصدع وتعديل الخلل وإعادة التوازن والميزان – الوسط .. العدل – إلى العلاقات بين الطبقات أو الأمم أو الحضارات، قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت :٣٤] ، ذلك المفهوم الإسلامى للعالمية: نزوع عالمى يرى التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف فى القاعدة والقانون فى كل عوالم الخلق، ويؤمن أن التفاعل هو الوسط العدل بين «العزلة والانغلاق»وبين «التبعية والإلحاق» فتصبح الصورة الحضارية للعالم هى صورة «منتدى الحضارات» الذى يكون

(١) محمد عمارة: بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية، مرجع سابق ،ص٣٨.

التكريم فيه لمطلق الإنسان[١].

وقد رفع الإسلام من قيمة الإنسان، ووضعه فى مرتبة تفوق مرتبة الملائكة وجميع الكائنات الأخرى، وبين كيف أن الله عز وجل كرّم الإنسان، ووهبه الحياة، وأسجد له الملائكة، وسخر له كل ما فى الكون من مخلوقات، قال تعالى:﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين].

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء]. وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [ص].

وقد حرص الإسلام على تربية الضمير وتهذيبه وصقله ... ووضع القواعد السلوكية التى ترتقى به وتجعله حارسًا على أعمال الإنسان يوجهها إلى الخير ويرشدها إلى الصلاح.

ولم يعرف الإسلام أى نوع من أنواع التعصب أو العنصرية طوال تاريخه الطويل، بل عاش فى ظله أبناء الرسالات الأخرى، سواء كانوا مسيحيين أو يهودًا، وأبناء غير الرسالات، واستمتعوا بجميع الامتيازات التى يستمتع بها الإنسان المسلم، من حرية فى العقيدة، وفى ممارسة التجارة والصناعة واحتلال وظائف الدولة، وحماية الدولة الإسلامية لحقوقهم كمواطنين دون تفرقة أو تمييز. وفى مثل هذا المناخ تتضاعف أهمية رسالة الأديان السماوية، وتتعاظم مسئولية المؤمنين فى الدفع بالتعايش بين الأديان نحو الاتجاه الصحيح، عملًا بالتوجيه الربانى فى قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

الإخوة الإنسانية إخوة شاملة تطوى الجميع فى حناياها.. يقول القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

(١) محمد عمارة: بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية، مرجع سابق، ص٤٠-٤١.

عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] ، وقد ساوى الإسلام فى واحته بين الجميع، ولم يستبعد من المساواة أحدا من أهل الكتاب – أهل الذمة – الذين يقيمون فى دار الإسلام ، هذه المساواة هى رسالة الإسلام إلى الدنيا وإلى الناس كافة، فمجد الإسلام هو هذا العالم الجديد الذى وضع أساسه وقيمه ومبادئه وأحكامه، واتسعت رقعته لتضم فى ثناياه الأسرة الإنسانية بلا حواجز ولا عصبيات ولا استعلاء، هذا العالم الجديد مهجته الرحمة والتراحم، فالإسلام نور وهداية والرسول ﷺ رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] ، والرحمن الرحيم من أسماء الله الحسنى، فعن صفة رحمته ينبئ ربنا تبارك تعالى فيقول: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر:٧] ، ويأمر الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ بإبلاغها إلى الناس، كل الناس: قال تعالى: ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر].

الإسلام يدعو إلى الخير والمعروف لا إلى التميز والعلو فى الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران].

والإسلام يطلب العزة الحقيقية فى التقوى لا فى المجد الزائف ،فمن لم تعزه التقوى فلا عز له الإسلام يطلب الرفعة، ويطلب القوة لكن كل ذلك بالحق ولأجل الحق هذا العالم الجديد لم يبنه الإسلام ويضع أساسه وكفى، وإنما أعطى مفتاحه إلى الدنيا ليلج إليه من يريد هداية الله وصدق التوجه إليه وسلامة الوجدان والضمير[1] .

العالم الجديد الذى وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس هو عالم عماده الهداية والتوحيد والسماحة ومفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان الذى يجبر به المسلم غير المسلم، ويبقى وفيا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان فى مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم، هذه الحضارة التى أقامت بمنظومتها الرفيعة مجدًا حقيقًا للإنسانية، وبقى المسلمون على ذلك إلى أن دخلوا مع الناس فيما اصطلح عليه الناس،ومازالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم[2] .

(١) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص١٠٥.
(٢) المرجع نفسه ،ص ١٠٦.

قد كان يمكن للحراك الذى تشهده الآن وقبل الآن، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك المفتاح البسيط الملىء بالثقة والود والسماحة والأمان، بيد أن هذا الخيط تطمسه أو تحاصره الحملات الضارية على الإسلام والمسلمين، ولواعج الشعور بالهوان الدنيوى والتطلع إلى استعادة العزة والمنزلة والمكانة والثروة، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقترن بها ويصاحبها من تغول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وتهجمهم الوحشى المغلوط – يصرف بعض المسلمين عن الجوهر الحقيقى لهذا المفتاح الذى كان بشارة العالم الجديد الذى هز به الإسلام أركان العالم الذى كان سائدًا وقت نزوله[1].

الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى:

مفهوم الثقافة:

كلمة ثقافة يكثر استعمالها فى مجال الحديث والتأليف والندوات والمؤتمرات، فيقولون: فلان مثقف، وفلان غير مثقف، والأمة الإسلامية أمة مثقفة، .... ،وهكذا.

ومع شيوع كلمة (الثقافة)، نرى اختلافا فى تحديد مفهومها، ككثير من المصطلحات المعاصرة. فهناك من يقصر الثقافة على الجانب المعرفى فى الحياة أى ما يتعلق بالعلم والفكر والأدب والفن، وهناك من يوسع مفهوم الثقافة، بحيث لا تقتصر على المفهوم المعرفى، بل تشمل الجانب الوجدانى الذى يعنى به الفن، والجانب الروحى الذى يعنى به الدين، والجانب العملى أو السلوكى الذى يعنى به الأديان السماوية والأخلاق، بل تشمل الجانب المادى أيضًا من الحياة[2].

فالثقافة: أفكار ومعارف وإدراكات ممزوجة بقيم وعادات، ووجدانيات تعبر عنها أخلاق وعبادات، وآداب وسلوكيات، كما تعبر عنها علوم وآداب وفنون متنوعات، وماديات ومعنويات.

قال صاحبى: هل تعتبر ذلك الأكل ثقافة مثلًا؟

قلت: إذا كان المقصود بالأكل البلع والمضغ والهضم، فليس من الثقافة فى شىء، فهذا أمر يشترك فيه الإنسان والحيوان، بل الحيوان متفوق فيه على الإنسان، فالحيوان قطعاً أوسع بطنًا، وأكثر أكلًا من الإنسان. ولكن إذا قيل للإنسان: « سم الله، وكل بيمينك،

---

(١) المرجع نفسه ،ص١٠٦.

(٢) يوسف القرضاوى: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م،ص١٤.

وكل مما يليك»[١]، وكل من الحلال والطيب، ولا تأكل الخبيث مما حرم الله عليك، وكل فى إناء مباح لا فى ذهب ولا فضة، وكل عندما تجوع، وإذا اكلت فلا تسرف، فما ملأ بن آدم وعاء شرًا من بطنه. وإذا فرغت من طعامك فقل: «الحمد لله» إلى آخر هذه الآداب، فهنا يصبح الأكل ثقافة. وليس مجرد عملية حيوانية.

وهكذا المشى، فالإنسان يمشى، والحيوان يمشى، كما قال القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور]. سواء فسرت بمعنى اجعل لمشيك مقصدًا وهدفًا،أو اعتدل فى مشيك، لا تسرع إسراع الحمقى، ولا تبطئ إبطاء المتماوتين، وكن من عباد الرحمن، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء]. فهنا يغدو المشى ثقافة كل هذه الأمور المادية تنقلب الى ثقافة إذا ارتبطت بقيمة وهدف نبيل، ومعايير وآداب ترقى بها، وتنقلها من المعنى الحيوانى إلى الأفق الإنسانى صحيح أن الجانب المعرفى والفكرى له أولوية على غيره، على أساس أن الفكر يسبق الحركة وأن العلم يسبق العمل، وأن حركة الإنسان لا تستقيم إلا إذا إستقام فكره وتصوره، ومن هنا يقدم الدين الإيمان والعلم على العمل[٢].

ولذا كان أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١]،لأن القراءة مفتاح العلم، وهو مقدم ثم نزل بعدها:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر]، فأمر بالعمل بعد العلم.

ونحن فى استعمالنا العادى نبرز الجانب المعرفى ونقدمه، فإذا رأينا إنسانًا قارئًا متنوع القراءة، ملما بما يجرى فى الحياة، غير جاهل بالترا نقول عنه: إنسان مثقف. ولا نصف بهذا من كان بارعًا فى تخصصه، متفوقًا فيه، ولكنه إذا خرج من دائرته، وجدته أشبه بالعامى. ولذا قيل: المتخصص من يعرف كل شىء عن شىء. والمثقف من يعرف شيئًا عن كل

(١) أخرجه البخارى: ك "الأطعمة"، باب [التسمية على الطعام والأكل باليمين]، حديث رقم (٥٠٦١)، ٥/٢٠٥٦.
(٢) يوسف القرضاوى: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، مرجع سابق، ص١٥.

شيء[١].

وقديمًا كانوا يقولون عن هذا الأديب والعالم، فالعالم هو المتخصص، والأديب هو المثقف بلغة عصرنا، ويتساءل كثيرون عن الفرق بين الثقافة والحضارة، وقد حاول البعض أن يفرق بين الكلمتين بأن الثقافة لا تشمل الجانب المادى، وقد رأينا أنها تشمله بالمعنى الذى تم شرحه، وفرق بعضهم بأن الثقافة تتعلق بالجانب الفردى، والحضارة تتعلق بالجانب الاجتماعى، وهذا تفريق غير سليم، فالثقافة كما تتصل بالفرد تتصل بالمجتمع والأمة، ولهذا يقول الكتاب والباحثون: الثقافة العربية، الثقافة السكسونية، الثقافة الأمريكية، الثقافة اليابانية ... فنجد النسبة هنا إلى أمم وليس إلى أفراد، وقد تنتسب الثقافة إلى أديان كما يقال: الثقافة الإسلامية، الثقافة المسيحية، الثقافة اليهودية، الثقافة البوذية، وهذه ضد الأديان، ولكنها كما سمى بعضهم هذه الأيديولوجيات الوضعية «أديان بغير وحى». والواقع أنه لا يكاد يوجد فرق فى الاستعمال المعاصر بين الثقافة والحضارة، فكل واحدة من الكلمتين توضع مكان الأخرى[٢].

ثقافتنا بين الثقافات:

لا شك أن المقصود بثقافتنا فى هذا المجال هى الثقافة العربية الإسلامية، وهى الثقافة المعبرة عن هوية الأمة وفلسفتها ونظرتها الكلية إلى الوجود، وإلى المعرفة، وإلى القيم، وبعبارة أخرى: إلى الله والإنسان، الكون والحياة، الغاية والرسالة.

والأمم بلا ريب تختلف فى ثقافتها اختلافًا كبيرًا، فمنها ما تتجه ثقافتها إلى الروح ومنها ما تتجه ثقافتها إلى العقل، ومنها ما تتجه إلى المادة، ومنها ما يجمع بينها جميعًا، ومن الثقافات ما يتصل بالأرض، ومنها ما يتصل بالسماء، ومنها ما يتصل بالأرض والسماء معًا.

لكن الكثير يسألون عن هوية هذه الثقافة: أهى عربية أم إسلامية؟ وكأن إثبات أحدهم ينفى الآخر بالضرورة، وهذا غير صحيح، فالعربية هى لسان الإسلام، لسان قرآنه وسنة نبيه، ولسان عبادته، ولسان التفاهم المشترك بين علمائه، ورسول الإسلام عربى، وصحابته الذين تربوا فى حجره عرب ومنطلق الإسلام من أرض العرب، ومساجد الإسلام

(١) يوسف القرضاوى: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، مرجع سابق ص١٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٧.

الكبرى، التى لا تشد الرحال إلا إليها كلها فى أرض العرب، والإسلام هو الذى أخرج العرب من الظلمات إلى النور وهو الذى علمهم من جهالة ،وجمعهم من فرقة، وأورثهم ممالك الأكاسرة والقياصرة، وجعلهم بنعمته إخوانًا وجعل لهم ذكرًا فى العالمين[1]، والإسلام هو الذى جعل العرب (أمة) بعد أن كانوا قبائل متناحرة وجعل لهذه الأمة رسالة وحدت أهدافهم وآمالهم، وجندت طاقاتهم فى سبيلها: إنها ثقافة عربية إسلامية معًا، ولا نقول هذا مجاملة للإسلام، بل هى الحقيقة الناصعة التى دلت عليها كل الدلائل والبراهين ،ومن ثم نقول: ثقافة عربية إسلامية ،وحضارة عربية إسلامية، وبذلك ننصف الحقيقة وننصف الإسلام.

ثقافة ترحب بالحوار:

إن ثقافتنا الأصيلة ترحب بالحوار مع الآخر «الغرب»، بل تدعو إليه ولا تخاف منه، ومن يقرأ القرآن يجده حافلًا بالحوار على مستويات شتى.

حوار بين رسل الله – عليهم السلام – وأقوامهم، كما نجد ذلك فى حوار إبراهيم مع قومه فى سورة الأنعام، وسورة الأنبياء، وسورة الشعراء، وحواره لأبيه فى سورة مريم. وحوار شعيب لقومه فى سورة هود، وسورة الأعراف ، والشعراء. وحوار موسى مع فرعون فى سورة الشعراء على وجه الخصوص. وحوار الله تبارك وتعالى مع خلقه فى القرآن الكريم. وحوار الله تبارك وتعالى مع ملائكته عندما أراد الله سبحانه خلق آدم واستخلافه فى الأرض: ﴿ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

وقد اعتبر القرآن الحوار وسيلة من وسائل الدعوة مع المخالفين، وقد أمرنا الله بالدعوة فى قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ

(١) يوسف القرضاوى: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، مرجع سابق، ص١٩-٢١.

أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، فالموعظة تكون حسنة لأنها مع الموافق، وأما الجدال، فلم يكتف إلا بأن يكون بالتى هى أحسن لأنه مع المخالف، ومعنى ذلك أنه إذا كانت هناك طريقتان للجدال وللحوار إحداهما حسنة والأخرى أحسن منها وأجود، فالمسلم مطالب بالأجود التى هى أحسن. وقد وجدنا كثيرًا من ثقات علماء المسلمين ودعاتهم يرحبون بالحوار الإسلامى المسيحى فى العصر الحاضر، إذا عينت أهدافه، وبينت موضوعاته، وحددت ضوابطه، وقد حضر العلامة الشيخ الدكتور/ مصطفى السباعى- رحمه الله - فى الخمسينيات مؤتمرًا للحوار فى لبنان، كما شارك وفد من رابطة العالم الإسلامى برئاسة الشيخ محمد على الحركان - رحمه الله - فى السبعينيات من القرن العشرين فى حوار مع الفاتيكان وكرادلته، وكان الحوار عن (حقوق الإنسان بين الإسلام والمسيحية) ، وكانت نتائج هذا الحوار إيجابية للإسلام والمسلمين. كما نظمت الجماهيرية الليبية عن طريق جمعية الدعوة الإسلامية بها حوارًا آخر مع الكنيسة حول أربعة موضوعات بين الإسلام والمسيحية، وقد صدر عن هذا اللقاء توصيات جيدة[١] .

وفى حوار آخر فى مدينة (كولن) بألمانيا نظمه الدكتور عبد الجواد فلا توري - رحمه الله - وكان يضم وفدًا من مصر منهم: الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - والدكتور محمود حمدى زقزوق، وحدث تقارب وتفاهم وكان مفيدًا للطرفين[٢]. والبعض من علماء الشريعة ممن يتوجس خيفة أو يتوقع شرًا، من وراء هذه اللقاءات، ويرى أنها نوع من الغزو لنا، ومحاولة التأثير فينا، وكأننا نحن الطرف الضعيف الذى يخاف على نفسه، ولم لا يكون العكس؟.

إن أهمية الحوار مع الآخر ضرورة من وجهتين:

الأولى: أن الحوار معه يتيح لنا أن نعرفه بما نملك من فكر واتجاهات، ومن ثم فمن يدرى: ألا يحتمل أن يقتنع بما نقول فنكسب واحدًا، ويخسر الآخر هذا الواحد.

الثانية: أن الحوار مع الآخر ينبهنا فى كثير من الأحيان إلى جوانب ربما لم ننتبه إليها، وتاريخ الفكر الإسلامى زاخر بالأمثلة على هذا، وكيف أدى الحوار مع الآخر إلى أن يستعين فلاسفة المسلمين بالزاد الفلسفى الذى وجدوه فى تراث اليونان ليطرقوا مجالات لم تكن مطروقة ويصطنعوا أساليب لم تكن معروفة[٣]. ثم إننا مأمورون بالجدال بالتى هى

(١،٢) يوسف القرضاوى: ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، مرجع سابق ، ص٥١.

(٣) سعيد إسماعيل على: التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادى والعشرين،ص ٦٢، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٨٥)،

أحسن ،كما أُمِرنا بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة فى آية واحدة، فلماذا نعمل بجزء من الآية، ونعطل الجزء الآخر؟

وإن هذا الحوار كان أيضًا إحدى العمليات التاريخية الرئيسية الكبرى التى مكنت الثقافة العربية الإسلامية – فى جانب – من احتواء وتطوير شعوب وأمم كاملة ومواريثها الثقافية، ومكنت تلك الشعوب والأمم – فى الجانب الآخر – من المشاركة – عبر الجسور التى أقامتها ومدتها الثقافة العربية الإسلامية نفسها – فى تغذية الحضارة الإنسانية العامة ودفع مسيرتها الطويلة والصعبة والمتشعبة فى دروبها ومسالكها العديدة[1] .

وقد يعتقد البعض أن الدعوة إلى دعم الحوار الثقافى بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافات الأخرى هى مناورة بهدف تحقيق مكاسب وقتية أو تجنب خسائر متوقعة، غير أن هذا التصور يبطله الحوار أو تبادل الأخذ والعطاء عمليًا، منذ بداية العصور الحديثة، والتزمت بها كل الدول التى تشكلت وتطورت فى إطار الحضارة أو الثقافة الإسلامية العربية، وهى السياسات التى ساهمت بقوة فى تكوين مجتمعاتنا المعاصرة وفى كل مجالات تطورها الثقافى الحديث: من الفكر المجرد إلى روح المبادرة والإبداع والابتكار والتغيير وتفجير القوى الديناميكية المتحركة، وإشعال ثورة التجديد، ومن العلم النظرى إلى التطبيقى إلى التعليم والإعلام، إلى المناخ الإبداعى الذى يقوم بدور عظيم فى تكوين الإنسان المبدع الذى يعيش عالم العولمة، فيحسن العيش فى هذا العالم، ويتعامل تعاملًا رشيدًا مع معطيات العولمة ومشكلاتها، ويقصد بمناخ الإبداعية: الوسط المباشر والتأثيرات الاجتماعية والنفسية والثقافية والتربوية مما يسهل التفكير والأفعال الإبداعية، كما يسهل ويساعد على تكوين القدرات المبدعة لدى الأفراد[2] .

إن هذه الحقائق الفعلية الملموسة، حقائق التاريخ والتفاعل الثقافى، هى المنطلق الحقيقى – فى تصورنا – لدراسة واستكشاف أساليب دعم (الحوار) الواعى والإيجابى فى عصر مختلف، ملىء بالوعود والإمكانيات ولكنه ملىء أيضًا بالأخطار والنذر – بالفرص والمخاطر – فالإمكانيات التى يطلقها هذا العصر – العولمة – تفتح آفاقًا جديدًا للوجود

السنة الحادية والعشرون، أغسطس – أكتوبر، ١٩٩٧، ص٦٢.

(١) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص١١٦.

(٢) حسن عبدالعال: منهجية التعامل مع واقع الأمة وواقع البشرية اليوم فى ضوء اتجاهات العولمة، ص٣٧-٣٨، مركز الدراسات المعرفية، جامعة الأزهر، ٢٠٠٠.

والحياة، ولكنها تشكل فى الوقت نفسه تحديات ضخمة فكرية وتقنية، اقتصادية ومجتمعية، سياسية وأمنية[١]، فعلى صعيد الوعود والإمكانيات لا يستطيع أحد أن يتجاهل حقائق هذا العصر التى يؤكد الفكر الحديث أنها تتحول - إن لم تكن قد تحولت بالفعل - إلى القواعد المادية التى يشيد عليها الآن مستقبل البشرية ،المنجزات التى تتلخص فى: الثورات الثلاث:

الثورة العلمية الأولى: فى القرن السابع عشر، وبرزت أساسًا فى أوربا، وبالتحديد فى بريطانيا، وساهمت هذه الثورة فى بروز المفاهيم والقناعات والمناهج والأفكار الحياتية والسلوكية الحديثة، التى أخذت تنتشر من أوربا إلى سائر المعمورة[٢].

الثورة العلمية الثانية: قد برزت فى القرن العشرين، وخصوصًا بعد الحرب العالمية الثانية، وتركزت هذه الثورة على أساس تطور الحاسب الآلى، وقامت هذه الثورة على تقنيات الفضاء، وكذلك على تطويع الذرة مدنيا وعسكريا، وسمى هذا العصر بعصر الذرة.

أما اليوم فالعالم يعيش بدايات ثورة علمية وتكنولوجية ثالثة: وتتركز التطورات العالمية الباهرة الجديدة أساسًا فى الولايات المتحدة الأمريكية والتى جعلت منها الدولة العظمى الوحيدة فى العالم[٣].

ومن معالم الثورة الثالثة: التطور فى وسائل الاتصال وتقنيات المعلومات والتى وضعت البشرية اليوم أمام آفاق معرفية لا نهائية. وهذه الثورة سهلت وعجلت حركة الأفراد ورأس المال والسلع والمعلومات والخدمات، وهى التى جعلت المسافات تتقلص والزمان والمكان ينكمش، وهى التى ساهمت فى إنتقال المفاهيم والقناعات والمغريات والأذواق فيما بين الثقافات والحضارات[٤].

وماهى السمة الرئيسية لهذه الثورة العلمية التكنولوجية الثالثة؟

الثورات العلمية الصناعية السابقة اعتمدت على الفحم، على البخار، على النفط، أما

---

(١) على حرب: حديث النهايات، فتوحات العولمة ومأزق الهوية، ص٩، ط١ ، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء ، ٢٠٠٠.

(٢) عبدالخالق عبدالله: العولمة، جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها ،ص٦٣-٦٤، عالم الفكر، "العولمة ظاهرة العصر"، تصدر عن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد (٢٨)، العدد (٢)، أكتوبر/ ديسمبر، ١٩٩٩.

(٣) عبد الخالق عبد الله:مرجع سابق ص٦٤.

(٤) عبد الخالق عبد الله:مرجع سابق ص٦٠.

هذه الثورة الثالثة فتعتمد على العقل الإنسانى، وعلى الخبرة العلمية التى تمتلكها الشعوب، وأعظم ثروة سوف تتنافس بها الشعوب مع بعضها البعض ليست الموارد الطبيعية، إنما القدرات العقلية[١].

ومن خلال ما سبق فنحن فى العالم الإسلامى بحاجة ماسة إلى توفير البيئة المواتية لصناعة وقبول العقل الناقد، وهذا يمدنا إلى مجال البحث العلمى وربطه بحركة المجتمع التنموية.

وعلى صعيد الأخطار والنذر – المخاطر – فهذه المخاطر تتفاوت بين المخاطر السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، فهى عديدة ومتضاربة، ربما كان على رأسها تزايد طموحات شعوب ومجتمعات ودول العالم الثالث إلى التنمية ،وبالتالى الحصول على أنصبة عادلة من ثمار ثرواتها الخاصة، وعلى أنصبة عادلة من الثورات المادية الثلاثة التى جرى تمويلها أساسًا من خلال الاستغلال (الاستعمار) الطويل لثروات تلك الشعوب النامية الطامحة إلى النمو المتكافئ ،أى إعادة توزيع ثمار وأرباح التطور المادى الذى أنجزته الإنسانية فى القرنين الأخيرين على أسس عادلة.

فى مواجهة هذه الموجة، لجأت قوى الاستثمار القديم (والجديد معها) إلى أساليب مختلفة لمقاومة إعادة توزيع الثروة الإنسانية المشتركة – الثروة المادية والمعرفية معًا- بشكل عادل، بل لجأت إلى محاولات عديدة لإعادة الأوضاع بأشكال جديدة فى بقاع عديدة من العالم إلى ما كانت عليه قبل عملية تصفية الاستعمار، وكان أن جاء جزء من رد الفعل إزاء تلك المقاومة فى عالمنا الثالث – الذى يشكل شعوب ومجتمعات الحضارة الثقافة العربية الإسلامية أكثر من ثلثيه – فى شكل ارتداد داخلى إلى "الذات" التى رسمت صورتها على أنها ذات قومية (دينية / وطنية / ...) جامدة ، ثابتة، مطلقة ، ثم فى شكل رفض مطلق للآخر – بكل تجلياته الإيجابية والسلبية، ورفض مطلق لأى نوع من الحوار معه، أو للحوار مع الذات القومية المتطورة، التى كانت قد تطورت فعلا – اجتماعيًا وثقافيا – فى كل مجتمعاتنا دون استثناء تقريبًا[٢].

---

(١) على الدين هلال: دائرة حوار حول مصر وتحديات المستقبل، المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، معهد التخطيط القومى بالقاهرة، المجلد الخامس، العدد الثانى، ديسمبر ١٩٩٧، ص٢٧٢.

(٢) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص١١٨-١١٩.

ثم كان أن زادت قوى "الاستثمار القديم (والجديد) من توظيفها لثرواتها المادية والتكنولوجية – المعرفية – لشن هجوم مضاد، ليس فقط ضد من رفضوا الحوار، وإنما ضد كل من مجموع المطالبين بنظام عالمى عادل (جديد): اقتصادى وسياسى وثقافى ومعرفى وإعلامى، وكان تبرير هذا الهجوم: إن رافضى الحوار إنما يرفضون جميع القيم التى تمثلها ثقافات الآخرين، وبخاصة قيم الثقافة الغربية.. وهذا الهجوم المضاد وتبريره لنفسه هو ما تواجهه، أو ما ينبغى أن تواجهه دعوتنا المتجدده الآن لحوار إيجابى وواع بين الثقافة الإسلامية وبين الثقافات الأخرى، وهو ما تفرض كل منطلقات الدعوة إليه، أن يكون حوارًا مع الذات من ناحية، ومع الآخرين من ناحية أخرى.

إن عوامل كثيرة تراكمت وتفاعلت طوال القرون الخمسة عشر الأخيرة ،فأنتجت الوضع الحالى لموازين ومؤشرات التفاعل بين الثقافات التى تنتمى إلى الحضارة الإسلامية – بعد أن استوعبت ثقافات بشعوبها من جيرانها القدامى وجيرانها الحاليين، بما يجعل مبدأ الحوار الواعى والإيجابى بينهم جميعًا ضرورة حيوية لمستقبل ازدهار شعوب ومجتمعات كل منهم وأمنها، ومن أكثر تلك العوامل تأثيرًا فى تلك الموازين والمؤشرات كان هو الصعود السريع الكبير لأوربا فى مجموعتها منذ القرن السابع عشر ،واكتساحها لكل أرجاء العالم القديم بما فيه العالم الإسلامى بالسلاح أو بالأنظمة الإدارية أو المعرفية أو بالاقتصاد أو بكل ذلك معًا [1] .

العلاقة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية:

تسير الثقافة فى حياة الأمة مع حركة الحياة فيها؛ لأنها الصورة الحقيقية لشخصية هذه الأمة، أو تلك، فإذا تعرضت حركة الحياة إلى تغيرات داخلية أو خارجية انعكس ذلك بصورة واضحة على ملامح ثقافتها، سلبًا أو إيجابًا، وفق قوة هذه الثقافة وأصالتها، ومدى تأصلها فى نفوس أبنائها، ومدى قوة التغيرات الطارئة عليها ، فإذا كانت الثقافة قوية أصيلة استطاعت أن تستوعب هذا التغير داخليا كان، أم خارجيًا ، وتصهره فى بوتقه مكوناتها ، بحيث تستفيد منه من خلال عملية انتقاء واعية، وإن كانت ضعيفة أو مهزوزة انصهرت هى فى خضم تلك المتغيرات والمستجدات، وذابت ملامحها لتتحول هى إلى ثقافة تابعة، تسير فى طريقها إلى الاضمحلال والزوال حتى تنتهى، وهذا ما يؤكد خطر الثقافة فى

(١) المرجع السابق نفسه:ص١٢٠-١٢١.

حياة الأمم قديمًا وحديثًا[١].

والعلاقة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية ليست حديثة العهد، بل تمتد إلى عصور بعيدة فى التاريخ، وبالتحديد إلى عهد ازدهار الثقافة الإسلامية، حين كانت هذه الثقافة – الإسلامية – متقدمة لركب الحضارة الإنسانية، حاملة بيدها مشعل الهداية والنهضة، والتقدم بمناحيه جميعًا: العلمى، الأخلاقى، الدينى، السياسى، الاجتماعى. فى تلك العصور تمكنت الثقافة الإسلامية بمقومتها الثابتة والصالحة لكل زمان ومكان أن تستوعب الحضارات / الثقافات المعاصرة لها، وفرضت لغتها العربية محل كثير من اللغات المعاصرة لها – كاللغة الآرامية، اللغة القبطية، وفى نفس الوقت قام المسلمون فى ذات الوقت بدراسة الثقافات الأخرى – غير الإسلامية – للانتفاع بما فيها من معان عن الأشياء، والحياة، لا لاعتناق ما فيها من أفكار. ومن ثم فقد كان دورهم يقوم على الانتفاع والتأثير، لا التأثر والانصهار فى تلك الثقافات المحيطة.

فى هذا العصر الذى بلغت فيه الثقافة الإسلامية أوج ازدهارها – عصرها الذهبى – كان الغرب الأوربى يرزخ تحت وطأة قرونه المظلمة، التى قضت فيها الكنيسة على كيان الإنسان الروحى والمادى ووقفت فى وجه العلم، وحاربت العلماء. فكان أن توجهت أنظار الغرب الأوربى إلى بلاد الإسلام وبالأخص إلى الأندلس، وبدأت أوربا تستمد بذور نهضتها من علماء المسلمين.

وتحت وطأة الانبهار والتأثر بالثقافة الإسلامية ، قامت دعوات الإصلاح الدينى، والإهتمام بالعلم، والوقوف فى وجه الإمبراطوريات الأوربية، لتبدأ بودار النهضة الأوربية التى أرادت أن تكون لها شخصيتها الخاصة المستقلة عن الدين [٢] .

وفى الوقت الذى بدأت فيه الثقافة الغربية تشق طريقها لتولى ركب الحضارة، كانت الثقافة الإسلامية تمر بفترات ضعف، وتراجع، وتعثر يحول بينها وبين الاستمرار فى قيادة العالم، فقد غرق المسلمون فى بحر الصراع، والفتنة، والانكباب على الدنيا بعد أن خالط فكرهم الدخن – الانحراف عن مصادر التلقى الأصلية [٣] . فالغرب الأوربى الذى نهل

---

(١) سارة بنت عبد المحسن: الثقافة الإسلامية ومدى تأثيرها فى الفكر المعاصر، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الشارقة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨، ص٢٩.

(٢) نادية شريف العمرى: أضواء على الثقافة الإسلامية، ص٤٤-٤٥، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١.

(٣) الدخن: يقصد به هنا: ما أشار اليه الرسول (ﷺ) فى حديث حذيفة حين قال له:«قوم يهدون بغير هديى ويستنون بغير سنتى»، أخرجه البخارى ومسلم.

من معين الحضارة الإسلامية تعلم كيف يقرأ أو يستفيد منها – الثقافة الإسلامية – فى نشر ثقافته والتسلل إلى بلاد الإسلام، حيث تزامنت مرحلة الانهيار الداخلية فى البلاد الإسلامية مع مرحلة الغزو الخارجى لها عن طريق الحروب الصليبية القديمة والمعاصرة، وعادة الأمم المغلوبة الافتتان بالغالب، والأفكار كالماء تنساب من أعلى إلى أسفل، وبالتالى فهى تنتقل من الغرب إلى الشرق الإسلامى بسهولة ويسر عن طريق قنوات مختلفة، ووسائط متنوعة، مباشرة وغير مباشرة. ومن الوسائط المتنوعة ثلاثة: التعليم الذى أُفرغ من بعده الدينى ، والثقافة بدعوة وحدة الثقافة العالمية وإنسانيتها، والإعلام. وتتولى هذه القوى الثلاث عملية التوجيه غير المباشر فى إحلال الثقافة الغربية بديلًا عن الثقافة الإسلامية، متفاديًا بذلك التصادم مع كثير من العقبات النفسية والعملية المختلفة.

الثقافة الغربية المعاصرة تتضمن أفكارًا مناقضة للفكر الإسلامى: كالديمقراطية التى تجعل الأمة هى مصدر التشريع، وسن القوانين، وهذا مناقض للإسلام،أو الدعوة للاشتراكية. أو الدعوة إلى العلمانية – فصل الدين عن الدولة – بدعوى أن الدين غير السياسة والحكم، وأن الدين مسألة شخصية، وأن هذه الأفكار وجدت لها صدى فى نفوس كثير من المسلمين ومنفذًا إلى عقولهم بفعل تلك الوسائط.

وهناك الآلاف من مراكز البحوث والدراسات المتخصصة بشئون العالم الإسلامى بالغرب، تقوم بتتبع ورصد كل ما يجرى فيه، ثم دراسته وتحليله مقارنة مع أصوله التراثية، ومنابعه العقدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعى القرار فى البلاد الغربية، لتوضع على أساسه الخطط، والسياسات، وتحدد وسائل التنفيذ لإعادة التشكيل الثقافى وفق النمط الغربى[1]. وفى مقابل هذه الدراسات والتحليلات، والخطط الغربية، نجد نخبة من المفكرين والعلماء والمثقفين فى العالم الإسلامى تقف أمام مد الثقافة الغربية أحد أربعة مواقف هى:

١ – السلبيون: يرفضون الثقافة الغربية بما أنتجته كله، ويدعون إلى عدم الأخذ منها بشىء. وهذا موقف لا يتناسب مع الأصول الإسلامية التى تدعو إلى الإفادة من كل شىء – لا يتعارض مع أصول الإسلام – لخدمة الدين. قال الرسول ﷺ : «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[2] .

---

(١) عمر عبيد حسنة: مقالة فى الدعوة والإعلام الإسلامى(التقديم، ص٢٧)، كتاب الأمة، ط١٠، قطر، ١٤١١هـ.

(٢) أخرجه الترمذى: ك (العلم)، ب [ما جاء فى فضل الفقه على العبادة]، ٥/ ٥١ رقم (٢٦٨٧)، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

٢-التغريبيون: هم الذين يقبلون على نمط الحياة الغربية جملة وتفصيلًا، فكرًا ومنهجًا، وأسلوب حياة. وهذا توجه مستسلم للغرب مقلد له.

٣-التوفيقيون: هم الذين يقومون بالتوفيق بين الثقافتين – الإسلامية والغربية – من خلال الدعوة إلى تقريب المبادئ بينهما، وتطوير الإسلام ليتناسب مع معطيات الثقافة الغربية.

٤-الصحوة الإسلامية: هو اتجاه يدعو إلى احتفاظ المسلمين بإسلامهم وفق القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، مع الدعوة إلى وحدة الجماعة المسلمة، والإفادة من معطيات الثقافة الغربية، والتحرز من الأخذ من فكر الثقافة الغربية نفسها، وروحها الملحدة[1].

وهذا الاتجاه الأخير هو الذى يحاول الوقوف فى وجه تحديات الثقافة الغربية، وإنقاذ الفرد والأمة من الغرق فى محيطها الجارف، لكن ضعف إمكاناته، وقلة خبرته، تضعف من فعاليته.

علاقة الإسلام بالغرب « الآخر »:

بقي علينا أن نبين: ما موقعنا – نحن المسلمين – من الغرب ؟

وما علاقتنا به ؟ أيمكن أن تكون علاقة تعارف وتفاهم أم لابد أن تكون علاقة صراع وتصادم ؟

إن الإسلام رسالة عالمية، فلا فرق بين غرب وشرق، فهو جزء من مملكة الله الواسعة، كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ١١٥]. والغربيون هم جزء من العالمين الذين أرسل الله رسوله محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

إن علاقة الإسلام بالآخر هى علاقة نظمها الإسلام ورعاها، وكان القرآن الكريم فى قمة الوضوح والإقناع حين بين هذه الحقيقة فى صلتنا بالآخر "غير المسلمين" وذلك فى قوله تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن

(١) عمر عودة الخطيب: لمحات فى الثقافة الإسلامية، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ-/ ١٩٧٩م، ص١٤٤.

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة]، وفى العديد من توجيهات الرسول ﷺ كانت الرعاية الفائقة التى لا حدود لها، ولم تكن فقط قاصرة فى وقت دون وقت، ولا مكان دون مكان، بل حتى فى الحروب، يأمرنا ديننا الإسلامى ألا نهدم معابدهم، وألا نحرق زراعتهم، وألا نجهز على كبار السن أو المرأة أو الصغار الذين لم يحاربوا.

آداب إسلامية راقية ،ماعرفت البشرية أسمى منها ،بل حتى المشرك الذى لا يدين بدين لو طلب الأمان واستجار وجب على المسلمين أن يلبوا نداءه، يقول تعالى:﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة]. فأى تعاليم ترقى إلى علاقة الإسلام بالآخر – غير المسلمين – كهذه التعاليم.

إن الدين الإسلامى الذى بلغ به محمد ﷺ خاتم النبيين عن طريق الوحى الإلهى، والذى يكون القرآن الكريم مصدره الأول ،كون له دولة المدينة والمجتمع المستقل بعد الهجرة النبوية، وتتميز دولة المدينة هذه عن دولة المدينة باليونان القديم فى القرون الأولى بما تملكه من نظام دستورى وتعهدات تشريعية، وقد تكفلت العلاقات بين المسلمين واليهود، وبين المسلمين ومن لم يسلموا بتعهدات تشريعية ثم توضيح مبادئها بنص يسمى بـ "صحيفة المدينة" ، وإن هذه الوثيقة التى تحتوى على المبادئ الأساسية التى يقتضيها المفهوم التشريعى المعاصر وحقوق الإنسان، أصبحت محل دراسات فى السنوات الأخيرة من عدة وجوه، إن هذه الوثيقة بينت دعائم المجتمع الجديد وأقر فيها الرسول ﷺ اليهود على دينهم وأموالهم وعاهدهم على الحماية والنصرة، وقد تضمنت الصحيفة المبادئ التالية:[1].

- وحدة الأمة من غير تفرقة بين أبنائها.
- تساوى أبناء الأمة جميعًا فى الحقوق والكرامة، يجير أدناهم على أعلاهم.
- تكاتف الأمة كلها دون ظلم وإثم وعدوان وفساد كائنا من كان الظالم والمفسد.

(١) مصطفى السباعى: اشتراكية الإسلام، ص٣١٢-٣١٤، مكتبة الشعب، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

- اشتراك الأمة فى تقرير العلاقات مع أعدائها، لا يسالم مؤمن دون مؤمن.
- تأسيس المجتمع على أحسن النظم رأهداها وأقومها.
- مكافحة الخارجين على الدولة ونظامها العام ،ووجوب الامتناع عن نصرتهم.
- حماية من أراد العيش مع المسلمين سالمًا متعاونًا، والامتناع عن ظلمهم والبغى عليهم.
- لغير المسلمين دينهم وأموالهم لا يجبرون على دين المسلمين ولا تؤخذ منهم أموالهم.
- على غير المسلمين أن يسهموا فى نفقات الدولة كما يسهم المسلمون.
- على غير المسلمين – فى الدولة الإسلامية – أن يتعاونوا معهم لدرء الخطر على كيان الدولة ضد كل عدوان، وعليهم أن يشتركوا فى نفقات القتال ما داموا محاربين.
- على الدولة أن تنصر من يظلم منهم كما تنصر كل مسلم يعتدى عليه.
- على المسلمين وغيرهم أن يمتنعوا عن حماية أعداء الدولة ومن يناصرهم.
- إذا كانت مصلحة الأمة فى الصلح وجب على جميع المسلمين وغير المسلمين أن يتقبلوا الصلح.
- لا يؤخذ إنسان بذنب غيره ولا يجنى جان إلا على نفسه.
- حرية الانتقال فى داخل الدولة وإلى خارجها مصونة بحماية الدولة، ولا حماية لآثم ولا ظالم.
- المجتمع يقوم على أساس التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

وإن التعاون فى الإسلام مبدأ عام فى كل الجماعات الإنسانية، كما قرره القرآن ، من الحث على التعاون المطلق على البر، ومنع التعاون على الإثم والعدوان، وهذا ما أكده القرآن الكريم، فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة :٢]، وإن التعاون قوام الأسرة، وقوام الأمة، وقد جاءت النصوص الدينية الإسلامية لتعميم

التعاون فى داخل الإقليم الواحد وفى نطاق الإنسانية، ووردت العديد من الأحاديث النبوية التى تحث المسلمين على التعاون مع بعضهم البعض، ومع كل من يعيش معهم فى المدينة.

والرسول ﷺ يعلن أن الله يمد بالقوة كل من يعاون أخاه الإنسان فى أى إقليم وفى أى موطن، فيقول ﷺ: «الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه»[1]، ولم يحدد ذلك الأخ بل عممه، فيعم الأخوة الإنسانية ولا يقتصر على الأخوة الدينية أو الإقليمية.

والأمان فى الإسلام مقرون بالوفاء، والوفاء بالعهد والوعد وبالمواثيق . عندما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة عقد مع اليهود حلفًا أساسه التعاون على البر، وحماية الفضيلة، ومنع الأذى، وأكد ذلك بالمواثيق، لكن اليهود نقضوا حلف التعاون ودبروا الأمر مع المشركين ضد الرسول ﷺ، وكان أساس التعاون «التعايش السلمى» – والقرآن أكد ذلك فى قوله تعالى:﴿ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]. وجعله من صفات المؤمنين فقال عنهم:﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]. وقال تعالى:﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم]، ووعد الله المؤمنين بالوعد بأنهم يدخلون الجنة، قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون].

والإسلام لا يقبل تحت أى ذريعة نقض العهد – العهود – والمواثيق.

وإن تواجد مدينتى مكة والمدينة فى وسط طرق التجارة كان يساعد على انتقال التراث الحضارى بجانب إمكانات أخرى بسبب موقعهما الجغرافى، وكانت البضائع التى تأتى من الصين والهند عن طريق اليمن وعمان تنتقل إلى الشمال ومنطقة الشرق الأوسط بقوافل عربية، ثم يتم إرسالها إلى أوروبا. وكان يسمى هذا الطريق بطريق البهارات حسب المصطلح التجارى. وقد استعمل هذا الطريق التجارى إلى أن تم فتح باب المواصلات بين جنوب إفريقيا وآسيا فى مطلع القرن الحديث، كما ازدهر فى بعض العهود خليج البصرة

---

(١) أخرجه مسلم: ك (الذكر والدعاء والتوبة)، ب [فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر]، حديث رقم (٢٦٩٩)، ٤/ ٢٠٧٤.

وطريق البحر الأحمر فى هذا المجال.

وإن نظرة فاحصة سريعة إلى الخريطة « الجغرافية / الحضارية» للعالم الإسلامى فيما بين الأطراف الجنوبية الشرقية للمحيط الهندى وبين الطرف الشرقى – الأوسط للمحيط الأطلنطى، صعودًا إلى امتداد الوسط الأسيوى الشاسع ومرورًا بالأناضول التركى وأطراف البلقان الأوربى، إن مثل هذه النظرة سوف تحدد بوضوح «جيراننا » الحضاريين، وإذا شئنا تحديد أكثرهم وضوحًا – وأهمية من الناحية الحضارية – فإنهم بالطبع من الشرق إلى الغرب: الصين إلى الشرق، والهند إلى الجنوب، وأوربا – فى الشمال – المنقسمة إلى الجزأين: السلافى، واللاتينوجرمانى، وفى العصور الوسطى كان يتوسط هذين الجزأين ثالث غربى هو: البيزنطى [١] .

ويعلمنا التاريخ « العالمى» أنه عندما شرع العرب – بعد توحيد قواهم تحت راية الإسلام – فى بناء العالم / الحضارة « الإسلامية – فى أواسط القرن السابع الميلادى – لم يكن القسم الشرقى – السلافى من أوربا – فى الشمال – قد دخل بعد ساحة التفاعل الحضارى الثقافى – أخذًا لا عطاء، وسوف يظل كذلك طوال القرون العشرة التالية، بينما كان القسم الغربى والجنوبى (اللاتينوجرمانى والبيزنطى) قد شرع يدخل عصوره الوسطى: مرحلة اضمحلاله الثقافى الحضارى النسبى وكُمونه الطويل، جاهلًا، أو غير واع بميراثه الإغريقى الرومانى وأصول هذا الميراث فى حضارات/ ثقافات «جنوب البحر المتوسط (مصر وفينيقيا وبابل بشكل خاص). [٢] .

هكذا كانت أكثر تفاعلات « الحضارة/ الثقافة» العربية والإسلامية البازغة الجديدة حيوية ونشاطا مع جيرانها المباشرين إلى الشرق، ومع مضيفيها الذين امتزجت بهم تمامًا فى الشمال والغرب « حضارات / ثقافات» فارس والهند والصين من ناحية ، والحضارة / الثقافة الهيللينسية / المسيحية التى كانت أجزاء من الممالك اليونانية / المقدونية، ثم من الإمبراطورية الرومانية فى مناطق الهلال الخصيب (سوريا الكبرى) ومصر وشمال إفريقيا، وهى الثقافة التى حملت فى بنيتها وفى تشكيلاتها العديدة مواريث وملامح قوية من الثقافات / الحضارات المحلية أو الأصلية الأقدم المصرية والبابلية والفينيقية [٣] .

---

(١) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص١١٩.

(٢) المرجع نفسه، ص١١٩-١٢٠.

(٣) سامى خشبة: دعم الحوار بين الثقافة العربية والإسلامية والثقافات الأخرى، موقع عل الإنترنت author.asp.

إن رسالة الإسلام ومضمونه العالميين ساعدت على انتشار الإسلام بين مختلف الأجناس والأعراف بشكل واسع ونشط كما تقتضيه طبيعة هذا الدين. وظهر بين قادة المسلمين أمثال: بلال الحبشي، وصهيب الرومى وسلمان الفارسي من غير العرب، كما نرى الرسول ﷺ يبعث رسائل إلى قادة الدول المجاورة بعد صلح الحديبية يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان بين هؤلاء وريث دولة الرومان الشرقية الإمبراطورية البيزنطية هرقل.

ويمكن أن نعتبر هذه الرسالة التى بعثها الرسول ﷺ إلى الإمبراطور البيزنطى حاكم شبه جزيرة البلقان والأناضول أول وثيقة رسمية فى العلاقة بين الإسلام والغرب، والعلاقة بين الإسلام والغرب علاقة معقدة، فهى من جانب علاقة يجب أن تُدْعَم وتقوى لمصلحة الغرب والإسلام، فالغرب يحتاج إلى الشرق لا فى موارد الطاقة وحدها، وإنما فى أمور كثيرة يعلمها خبراء الإستراتيجيات فى العالم، وهذه الحاجة ترجع إلى عصور مضت منذ احتياج الغرب إلى موارد الطاقة الغذائية: كالفلفل والبهار وسائر منتجات الشرق، وكانت خطوط التجارة العالمية التى تمر عبر الشرق تمثل الشرايين فى قلب العالم الإسلامى ذاهبة آيبة تحمل التجارة من الشرق إلى الغرب وبالعكس، فى تواصل مستمر وضرورى لا فكاك منه فى أى مرحلة من مراحل التاريخ[1] .

وكلما تقدمت وسائل الاتصال وتطورت الإنسانية ازدادت الحاجة إلى هذا التواصل والتبادل، وللإسلام حاجة إلى هذا التواصل أيضًا، بنفس الدرجة والأسباب، لا تقل عددًا أو أهمية عن الأسباب التى تربط الغرب بالشرق (الإسلام).

لكن لسوء الحظ، فإن عقدة غريبة تقف فى سير العلاقات بين الغرب والإسلام منذ العصور الوسطى: هى الحروب الصليبية التى تركت رواسبها وآثارها فى نفسية الكثيرين على الجانبين، وخلفت وراءها كما هائلًا من التعصب عبر قرون عديدة. ولعل أسوأ ماخلفته هذه الحروب: ظهور طبقة من المفكرين المتعصبين الأوربيين الذين صبغوا التاريخ والعلاقات بين الإسلام والغرب بهذه السخائم النفسية، التى لوثت هذه العلاقات وأقامت حاجزًا كبيرًا بين الغرب والإسلام – العالم الإسلامى – حتى أن مؤرخًا كبيرًا هو «أرنولد توينبى» يفسر العلاقات والحركات التاريخية الكبرى تفسيرًا نفسيًا ـ تبعثه هذه

(١) عبد المعطى محمد بيومى: العلاقة بين الإسلام والغرب،بحث مقدم للمؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية وعنوانه: «حقيقة الاسلام فى عالم متغير»، ص٨٤٩، القاهرة، المنعقد فى الفترة [١٨-١١ ربيع الأول ١٤٢٢هـ/ ٢٠-٢٣ مايو ٢٠٠٢]، ٢٠٠٣.

السخائم فيقول: « إن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان دافعه الانتقام من العالم الإسلامى، وأن الأمير البرتغالى « هنرى الملاح» الذى كان العامل الفعال فى هذه الكشوف كانت رغبته الدافعة هى الانتقام من احتلال المسلمين للأندلس - كما يقول - واحتلالهم للقسطنطينية « إستانبول» [1].

كما يفسر بعض المؤرخين الحروب الاستعمارية فى العصر الحديث واحتلال الشرق العربى الإسلامى بنفس التفسير، فيذكرون الكلمة الشهيرة التى قالها القائد الإنجليزي الذى احتل مدينة القدس (الآن ... انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين). إلى هذا الحد تكمن الحروب الصليبية فى نفسية كثير من المتعصبين الغربيين الذين مازالوا يعيشون فى الماضى ويفسرون به الحاضر، وربما يشكلون به هذا الحاضر للأسف الشديد.

واستطاع الأوربيون من خلال فترة الحروب الصليبية التطلع على كبريات المدن الإسلامية عن كثب، لم تكن هذه المدن موجودة فى أوربا الإقطاعية فى ذلك الوقت (سوى المدن الساحلية من إيطاليا) وكانت أوربا فى ذلك الوقت مشتهرة بقصورها الواسعة المحاطة بالأسوار الضخمة.

وأن النشاط الاستعماري الذى قام به الأوربيون للمرة الثانية تجاه العالم الإسلامى بدأت فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، حيث تم احتلال: [الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان من قبل الفرنسيين، وليبيا من قبل الإيطاليين ، ومصر ، وفلسطين، والحجاز والعراق من قبل الإنجليز] ، وكانت القارة الهندية فى هذه الحقبة تحت سيطرة الإنجليز أيضًا ... وهكذا.

فتاريخ العهود الاستعمارية الحديثة تتصف بقيام القوات العسكرية بفرض ثقافتها، وقيام أهل المناطق المستعمرة بتقليد الشعوب الحاكمة والخضوع لتأثير ثقافتهم. وسمي هذا التأثير الثقافى بالاستعمار الثقافى، وهكذا ظهرت فئات وجماعات محلية تقوم بتقليد وتقبل القيم الغربية كما هى، كما هو الحال فى جميع الأقطار على العموم، وإن الازدواجية والتعارض فى تغيير الثقافة بالقوة والاضطهاد تعرقل الوحدة القومية والثقافية للشعوب، وهذا وضع مؤلم موجود فى كل الدول الأقل نموًا.

لكن يبدو أن تطور التاريخ وتنوع العلاقات وتشابك المصالح عفا على هذه النظرية

---

(١) عبد المعطى محمد بيومى: مرجع سابق ، ص٨٠ .

الرجعية فى الغالب الأعم، ولم يبق لهؤلاء الرجعيين المتعصبين من سند يعتمدون عليه غير مرارة الذكرى، ولا تستطيع الذكريات المريرة أن تقيم سلاما، ولا أن تصنع حاضرًا سعيدًا بين الإسلام والغرب، وإذا لم يتحرك العقلاء لكبح جماح هؤلاء المتعصبين فإنهم يدمرون العالم ولن يستطيعوا حماية أنفسهم هم ولا منجزاتهم؛ لأن التعصب يورث التعصب، والدم يولد الدم.

فعلماء المسلمين وقادتهم مسؤولون بالدرجة الأولى فى هذا المجال ، وبالإمكان الاستفادة من وسائل العصر العلمية فى هذا المجال. وعلى الغرب – علمائه وقادته – أن يقوم بوقف نشاطاته الثقافية الاستعمارية التى كان يقوم بها فى العالم الإسلامي – الحروب الصليبية والاستعمارية الحديثة – إذا كان يرغب فى تطوير علاقات حسنة مع العالم الإسلامي لحوار بناء أساسه المساواة والتعارف والتعاون وبناء علاقات رسمية متبادلة.

مشكلة الغرب والإسلام:

المشكلة تكمن في أن الغربيين أو – إذا أردنا الدقة – في أنفس الكثيرين منهم، وموقفهم من الإسلام، فقد توارثوا عن الإسلام صورة شائهة المنظر، دميمة الوجه، لا تمت إلى الإسلام من قريب أو بعيد، وهذه الصورة ورثوها منذ الحروب الصليبية، حين قدمت جيوشهم من أوربا في حملات متواصلة، مكتسحة دول المنطقة الممزقة، مقيمة لها ممالك وإمارات ، وقد انتصرت في أول الأمر، ثم لم تلبث أن هزمت في مواقع حطين، وفتح بيت المقدس، وموقعة المنصورة حيث أسر لويس التاسع.

وهذه الحروب كانت لها آثارها النفسية والعقلية، وكانت من أسباب نهضة الغرب بما اقتبسه من حضارة الشرق الإسلامية، ولكن رجال الدين صوروا الإسلام والمسلمين لعوام الناس صورة كريهة منفردة، لا تمت إلى حقيقة الإسلام بصلة، بيد أنها رسخت في الذهنية الغربية والنفسية الغربية وتوارثها الناس جيلا بعد جيل.

ولذلك ترى الغربي حين يتحدث عن الأديان الأخرى غير الإسلام وعن الأمم الأخرى غير أمة الإسلام، يتحلى بكثير من الموضوعية والإنصاف، فإذا تحدث عن الإسلام وعن حضارته وأمته، وقف موقفا آخر، فيه كثير من التحيز والميل مع الهوى، وكان على من يريد الإنصاف منهم أن يتجرد من العقد الخبيثة الموروثة، ويتقمص شخصية أخرى تغلب الموضوع على الذات، والحق على العصبية، وهذا ما اعترف به غوستاف

لوبون، ومونتجومري وات وغيرهما[1].

لماذا ننفتح على الغرب ؟

نحن- المسلمين- نريد أن ننفتح على الغرب، ونجد في ديننا ما يحثنا على ذلك، ولا نحب أن ننغلق على أنفسنا أو نعادي غيرنا، والذي يدعونا إلى ذلك جملة أمور منها ما يلي:

أولها: أننا أصحاب رسالة عالمية جاءت لكل الناس في كل أنحاء العالم، وصحيح أن القرآن نزل بلغة عربية، وأن رسول الإسلام عربي، وأن الإسلام نشأ في الشرق، وهذا لا يعني أن الإسلام لجنس خاص أو لجهة معينة، بل الإسلام لأهل الأرض جميعا،ولقد نشأت المسيحية في الشرق وانتشرت في أنحاء العالم.

ثانيها: أن أسباب الانفتاح والتفاهم واللقاء والتقارب كثيرة، فالتعارف لا التنابز هو واجب شعوب الأرض جميعا، ونحن لسنا مع من يقول من الأدباء الأوروبيين: الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا، فاللقاء ممكن، بل واجب إذا صحت النيات.

ثالثها: أن العالم تقارب جدا وخصوصا بعد ثورة الاتصالات والثورة العلمية الثالثة " الثورة الإلكترونية " حتى أصبح العالم قرية صغيرة، وكل هذا يحتم على أصحاب الأديان السماوية أن يتحاوروا وعلى أصحاب الحضارات أن يتفاهموا.

ماذا نطلب من الغرب ؟

١ - أن يتخلى عن الأحقاد القديمة، فنحن أبناء اليوم لا بقايا أمس.

٢ - أن يتخلى عن الأطماع الجديدة والرغبة في السيطرة على بلادنا، فعصر الاستعمار قد ولَّى.

٣ - أن يتخلى عن نظرة الاستعلاء التي كانت عند الرومان الذين يرون كل من عداهم برابرة.

٤ - أن يتجرد من مخاوفه منا،فلسنا وحوشا ولا أغوالا، ولا سيما ونحن - منذ قرون - ضحايا ظلم الغرب.

٥ – لا يتدخل في شؤوننا بغرض فلسفته علينا بالقوة أو بالحيلة، فنحن أحرار في

(١) يوسف القرضاوى: المسلمون والعولمة ، مرجع سابق ، ص١٣٩.

ديارنا.

٦ – لا داعي للغرب أن يتخذ منا (عدوا) يعبئ مشاعر أمه ضدنا، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وأن يسمينا (الخطر الأخضر) بعد زوال (الخطر الأحمر) والتقارب مع (الخطر الأصفر).

تصحيح صورة الإسلام بالغرب:

إن كل من يدرس الإسلام ورسالته الخالدة يجده متفقًا مع الفطرة البشرية السليمة، قائمًا على منهج رباني صحيح، يشمل كل جوانب الحياة في بساطة ويسر، ومن هنا كانت نظرة المسلمين إلى الكون قائمة على التعاون والتكافل، وليس على الصراع والنزاع.

إن الصورة التي صنعها الغرب للإسلام والمسلمين انطلاقًا من هزيمته في الحروب الصليبية، تقوم على أن الإسلام دين البطش والقوة والسيف، وأنه دين الرجال دون النساء، وأنه يحارب العلم والمدنية والتقدم، وجاء الاستشراق والاستعمار ليعمق الهوة بين الحضارتين – الإسلامية والغربية – وليزيد الصورة تشويهًا واضطرابًا في أعين الغرب .

وهذه الصورة المشوهة هي التي جعلتهم يحاولون رسم خرائط جديدة للعالم الإسلامي، خرائط جغرافية – من خلال التخطيط لتقسيم بعض الدول كالعراق والسودان ..، وخرائط ثقافية وفكرية – من خلال التدخل السافر في البناء التعليمي والتربوي الذي يمس التربية الدينية كما يحدث الآن في باكستان وغيرها من الدول، وخرائط سياسية لإحداث قلاقل هنا وهناك ودعم نظم معينة ومحاولة الإحاطة بنظم أخرى ..(أفغانستان والعراق) . هذه الصورة المشوهة هي الذريعة التي يتخذها صناع القرار في الغرب لإبادة وتشريد وقتل المئات من المسلمين في العديد من دول العالم وأبرزها أفغانستان، الشيشان، فلسطين، كشمير، العراق، ... إلخ. وهذه الصورة المشوهة هي التي جعلت بعض المتطرفين في الغرب يؤكدون أن العدو البديل عن الشيوعية - بعد سقوطها- هو الإسلام، وأنه يجب إعادة حرب صليبية جديدة ضد الإسلام[1] .

هذه الصورة المشوهة عن الإسلام هي التي جعلت حقوق المسلمين في أغلب بقاع العالم تنتهك تحت سمع وبصر العالم، وتحت سمع وبصر كل الهيئات الإقليمية والدولية المعنية بحقوق الإنسان. ولعله من المضحك المبكي أن دول الغرب ترسل بعثات للحفاظ

(١) نبيل السمالوطي: تصحيح صورة الإسلام في الغرب ص٩٩،من سلسلة فكر المواجهة.

على الحياة الفطرية التى يقصد بها الحيوانات المعرضة للانقراض فى أفغانستان فى الوقت الذى يباد ويشرد آلاف الناس هناك تحت وسمع وبصر العالم كله، وبتأييد من القوى العالمية العظمى تحقيقًا لمصالح معينة بعيدًا عن العدالة والقيم وحقوق الإنسان[1].

ووسيلتنا لتصحيح صورة الإسلام فى الغرب، أن نوضح الحقائق والمفاهيم الخاطئة، ونكشف حجب الحقد والضغينة التى شجعتها الكنيسة والاستعمار، والاستشراق؛ لتكون العلاقة بيننا وبينهم علاقة صراع وتدافع وعداء، كما ذهب إلى ذلك، فوكوياما، وهينتنجتون، وتوماس فريدمان صاحب نظرية « انتصار الليبرالية ».

ومعروف أن هذه الصورة المشوهة للإسلام فى الغرب يقف وراءها مراكز ودراسات بحوث، وأفكار ونظريات مزيفة ومصنوعة بيد باحثين وبتوجيه من صناع السياسة فى الغرب – المؤسسات السياسية والاستخبارية الغربية – ولعل الأمثلة على هذا كثيرة جدًا مثل نظرية التحديث، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وانتصار الليبرالية ... إلخ. وليس من الغريب أن مطلقى هذه النظريات – وهم رستو، فوكوياما، هينتنجتون، توماس فريدمان – هؤلاء أطلقوا هذه النظريات بعد تكليفهم من الأجهزة الرسمية فى أمريكا مثل الخارجية والمخابرات المركزية الأمريكية ...، وقد كانوا جنودًا فى هذه الأجهزة.

وهذا معناه أن الأجهزة الرسمية لصناعة القرار فى الغرب قد حددت علاقتها بالإسلام على أنها علاقة صراع، أى تم تحديد شكل العلاقة من طرف واحد، ولم يكتف الغرب بهذا التحديد، بل تحرك الغرب فى مجال التطبيق العملى بشكل عسكرى بضرب دول ومجتمعات إسلامية دون تفاهم مع أحد بوصفها مصدر الشرور، على سبيل المثال ما حدث فى أفغانستان، والعراق، وفلسطين، ولبنان.

والسؤال الآن: كيف نغير هذه الصورة المشوهة عن الإسلام؟ وكيف نقنع رجل الشارع فى الغرب؟ وكيف نقنع صانع القرار بأن الإسلام هو دين السلام والتقدم والتنمية والانفتاح على كل الحضارات؟ كيف نوصل لهم بأن الإسلام يحرم الاعتداء ويحرم الإرهاب وترويع الآمنين سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين؟

والإجابة عن هذه التساؤلات من خلال مجموعة آليات تنبثق عن سياسات مدروسة

---

(١) المرجع نفسه: ص١٠٠.

بشكل علمى، أهمها ما يلى:

١-دور الإعلام فى تبصير الناس بحقيقة الإسلام: حيث يمكن الوصول إلى رجل الشارع الغربى من خلال وسائل الإعلام والاتصال وترجمة حقائق ومفاهيم الإسلام الصحيح وطرحها من خلال الإعلام بالاستعانة بالمسلمين فى الدول الغربية، والاستعانة بالمنصفين من الدارسين الغربيين، وتوجيه النشاط الإسلامى بشكل صحيح فى الدول الغربية بالاستفادة من وسائل الإعلام الحديثة فى نشر الدعوة ورد الشبهات – مثل المرأة كم مهمل ولا قيمة لها وليس لها أى دور اجتماعي، المرأة المسلمة ترث نصف الرجل، شهادة المرأة بنصف شهادة الرجل، تعدد الزوجات للرجل، الإسلام انتشر بالسيف، الادعاء (الشبهة) بأن المسلمين كانوا شعوبًا لا تحترم الحضارات القديمة ومن ذلك إحراق مكتبة الإسكندرية، الادعاء بأن الإسلام يفرض على المرأة الحجاب الذى يمنعها من التعليم والعمل، الادعاء بتدنى مكانة المرأة في الإسلام وهضم حقوقها، الادعاء بأن الإسلام يبيح للمسلم أن يتزوج من غير المسلمة، ولا يبيح للمسلمة أن تتزوج من غير المسلم، الزعم بأن الإسلام ضد الديمقراطية وحقوق الإنسان - وتوضيح المفاهيم، واجب مقدس ينبغى أن تتضافر الجهود للقيام به، بتسخير سائر وسائل الإعلام (الإعلان) لذلك، لما لها من أهمية فى عالم اليوم، ومد الجسور بيننا وبين المؤسسات الإعلامية فى الغرب من أجل الوصول إلى هذا الهدف الكبير وهو تصحيح صورة الإسلام، ونذكر مثالا وقع أخيرًا فى أمريكا؛ إذ قام الإعلام الأمريكى بتغطية جيدة لموسم الحج فى عام ١٩٩٧م عبر برنامج migmtitve محطة Aben وكان البرنامج دعوة كريمة للإسلام، وإظهارًا لمنسك من أعظم مناسكه، حقق آثارًا طيبة فى الشعب الأمريكى كما اعترفت بذلك وسائل الإعلام الأمريكية نفسها[1].

٢-التواصل مع نظريات منصفة أقرت بفشل البناء الثقافى الغربى خاصة تلك التى أكدت إفلاس الحضارة الغربية من الغربيين أنفسهم: مثل نظرية تدهور الغرب (اشبنجلر)، ونظرية دورة الثقافات (سوروكين)، ونظرية دورة الحضارة (توينبى)،وأيضًا التواصل مع علماء وباحثين معاصرين ومؤثرين وموضوعيين ،ويدركون أنه لا سبيل لإنقاذ حضارة الغرب إلا باستعادة وتطبيق قيم الإسلام ،مثل المفكر الفرنسى جارودى،

(١) جريدة عكاظ السعودية، العدد ١١٢١٦، لسنة ٢٩، بتاريخ ٢/ ٥/ ١٩٩٧، ص٨.

وقد كان هذا أحد أسباب إشهار إسلامه، وهناك (روبرت كرين) مستشار الرئيس الأمريكى السابق نيكسون، وكان نيكسون يعتمد على (روبرت كرين) فى قراراته وفكره، وقد أخرج نيكسون دراسة بعنوان: « اغتنم الفرصة » ودفع بها إلى مستشاره (روبرت كرين) الذى عكف على فحصها ودراستها بعناية ، وتوصل بعدها إلى عظمة الدين الإسلامى، وأنه هو الحل للمشكلات المزمنة داخل المجتمع الغربي، وقد انتهى (كرين) بعد هذه الدراسة إلى اعتناق الإسلام[١] .

وهناك المئات من الباحثين الغربيين الموضوعيين الذين يعترفون بتفوق الحضارة الإسلامية، منهم من اعتنق الإسلام، ومنهم من لم يعتنق الإسلام، فهناك الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا الذى يرعى مركزًا من أهم وأبرز مراكز البحث فى الغرب عمومًا وبريطانيا خصوصًا، وهو (مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية) التابع لجامعة أكسفورد، والأمير تشارلز يدرك جيدًا حقائق جيدة حول الحضارة الإسلامية فى: وسطيتها، اعتدالها، سماحتها، دعمها للمنهج العلمى، التفوق العلمى، الانفتاح الثقافى، حقوق الإنسان، الديمقراطية وإلى جانب هذا المركز هناك العديد من المراكز العلمية المنصفة التى تحتاج إلى التعاون معها من أجل تصحيح صورة الإسلام فى الغرب، مثل : مركز التفاهم المسيحى الإسلامى بجامعة جورج تاون، ويجب التعاون أيضًا بين المسؤولين والمؤسسات فى العالم الإسلامى، وبين هذه المراكز فى نشر ما تسفر عنه هذه المراكز من نتائج وعرضها بعد تبسيطها فى أجهزة الإعلام الغربى[٢] .

٣-تشجيع المسلمين فى الغرب، سواء من كانت لهم أصول عربية أو غربية بأن يقتدوا باللوبى الصهيونى أو اليهودى وما يستخدمونه من آليات سياسية واجتماعية واقتصادية، حتى يلعبوا دورًا مهمًا فى التأثير على الرأى العام الأمريكى – الغربى – وصناع السياسات والقرارات.

٤-تفعيل الأجهزة الإسلامية والعربية ، مثل أجهزة جامعة الدول العربية، ورابطة العالم الإسلامى، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، والندوات العلمية لشباب العالم الإسلامى، ورابطة الجامعات الإسلامية، ومشيخة الأزهر الشريف، وذلك بهدف نشر حقائق

(١) نبيل السالوطى: مرجع سابق، ص١٠٣.
(٢) المرجع السابق نفسه ص١٠٤ - ١٠٥.

ومفاهيم الإسلام فى سماحته واعتداله والنشر باللغات الأجنبية.

٥-حُسن توظيف شبكات الاتصال الحديثة فى عرض حقائق ومفاهيم الإسلام فى سماحته واعتداله ويسره، وفى مقدمتها شبكة الإنترنت بشرط التنسيق بين كل المواقع العربية والإسلامية، وحسب دراسة للمجالس القومية المتخصصة فى مصر، فإن عدد المواقع لعشرة دول عربية تصل إلى (٢٧٩٧) موقعًا فى حين أن لإسرائيل وحدها (٢٩٥٠٣) موقعًا. وعدد مواقع الثقافة الإسلامية(٢٢٨) موقعًا، بينما عدد المواقع الثقافية اليهودية (٧٠٢) موقعا.

والمشكلة أن هذه المواقع الإسلامية لا تسهم فى الإجابة عن التساؤلات والاتهامات والمغالطات التى يطرحها الغربيون عمدًا لتشويه صورة الإسلام والمسلمين ... وبالرغم من وجود بعض المواقع المهمة والمتقدمة مثل: موقع "الإسلام والعقائد" الذى تشرف عليه إحدى شركات البترول، وموقع لوزارة التربية والتعليم فى مصر، وموقع لجمعية الرعاية المتكاملة ... إلا أن الأمر يتطلب أن يمارس الأمر بشكل حرفى ومهنى متقدم من خلال خبراء، ومن خلال سياسات وخطط مدروسة وهادفة، والمتابعة المستمرة لما يتم فى مختلف أنحاء العالم بشأن الإسلام والمسلمين[1].

٦-التوسع فى إنشاء وإرسال القنوات الفضائية المتخصصة والموجهة، مثل القناة المصرية الموجهة للولايات المتحدة الأمريكية، وقناة النيل التى تبث بالعبرية والموجهة لإسرائيل، وأن تحذو الدول الإسلامية مثل مصر على أن يتم التنسيق بين هذه القنوات.

٧-لغة الخطاب الدينى المعاصر:

إنها قضية بالغة الأهمية، وعلى فهمها الفهم الصحيح يتوقف مستقبل العلاقة داخل المجتمع الإسلامى الواحد ، ومستقبل العلاقات بين المسلمين وغيرهم – الغرب – من شعوب الأرض ، حيث إن هناك شعورًا بغيبة الخطاب الدينى على الساحة الدولية، وافتقاره إلى مقومات العصر والوضوح والقدرة على إقناع الآخر. وإن قضية العلاقة بالآخر تقع فى نطاقين:

الأول: النطاق الداخلى، أى خلاف المسلمين مع بعضهم البعض.

---

(١) نبيل السمالوطى: مرجع سابق، ص١٠٦-١٠٧.

الثانى: علاقة المسلمين مع غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام.

فالأمر الأول: أن الفرد المسلم ليس وصيا على الفرد المسلم الآخر، وإن اختلفت الأفكار والمواقف العلمية بين أفراد المسلمين، وتحت مظلة الدين الواحد أمر وارد تمامًا، وإن وحدة الأمة لا تحول دون وقوع الخلاف بين أفرادها بل يظل المسلمون - رغم خلافهم- كما قال ﷺ كالبنيان يشد بعضه بعضًا، فعن رسول الله ﷺ: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك أصابعه [1]، وإذا استفحل الخلاف ووصل إلى حد الاقتتال المنهى عنه فإن الفريقين يظلان أخوة ومؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات]. ومن ثم فالمشتغلون بالخطاب الإسلامى عليهم أن يراجعوا أنفسهم وأن يتأملوا فى آيات القرآن وسنة النبى ﷺ ، ليعرفوا كيف أن الإسلام اعتبر التنوع والتعدد واختلاف الثقافات نعمة تستوجب شكرها بالتعارف ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

أما الخطاب مع غير المسلمين – الغرب – فقد علمنا القرآن الكريم أن نجادلهم بالتى هى أحسن، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت].

كما وضح القرآن الكريم لنا أن العدل والبر معهم هو أقوم السبيلين، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] ، وحين يوضح القرآن أمر اختلاف العقائد الدينية فى قوله تعالى:﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة :٢٥٦] ، وهى قاعدة وضح القرآن مظهرها العملى فى قوله تعالى:﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سبأ] . وهناك آيات عديدة

(١) أخرجه البخارى: ك "المساجد"، ب "تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره"، ط٣، جـ١، حديث رقم (٤٦٦)، طبعة: دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧، ص١٨٢.

أخرى، يقول تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس]. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود]. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية].

ونذكر من سيرة الرسول ﷺ وآدابه فى الدعوة إلى الله، من أن بعض أصحاب الرسول ﷺ سألوه أن يدعو على المشركين فرفض قائلًا: «إنى لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة»[1].

ولسنا اليوم فى قتال دائم مع غير المسلمين، وإنما نحن وإياهم شركاء فى مسيرة واحدة، نتبادل ثمرات الخبرة والتجربة، ونوظف تنوعنا فى العقائد والثقافات لما ينفع البشرية جميعًا.

٨-تحديث الخطاب الإسلامى:

التحديث يجب أن يشمل الشكل والآليات وأساليب التأثير، ويجب أن يركز الخطاب الدينى على موقف الدين من متغيرات العصر ومن التعددية، والحوار، والشورى، والديمقراطية، والمرأة وحقوقها، وليت فقهاءنا وأهل الاجتهاد فى العالم الإسلامى يقدمون للأمة صياغات جديدة تشرح العلاقات الجديدة بين المسلمين وغير المسلمين - الغرب - بما يستحق أن نسميه سياسة التعايش والاتصال بديلًا عن سياسة العزلة والانفصال. وتجديد الخطاب الإسلامى - الدينى - الذى نعنيه هو كيفية نقل هذه الصورة الحضارية للإسلام إلى الآخر بأسلوب نريد أن يأخذ ساحة الحداثة والتجديد فى الشكل والمضمون، من حيث التركيز على قضايا عديدة منها:

أ- قيمة العقل فى الإسلام.

ب- مناهج البحث العلمى.

ج- الإسلام وحقوق الإنسان.

د- الحوار بين الحضارات أو التعددية الثقافية فى الإسلام.

ه- الإسلام والسلام.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه: ب "النهى عن لعن الدواب وغيرها"، كتاب: "البر والصلة"، حديث رقم (٢٥٩٩)، ص٢٠٠٦، طبعة دار إحياء التراث العربى، بيروت، د.ت.

و- الوظيفة الاجتماعية للمال فى الإسلام.

ز- الإسلام ينبذ الإرهاب.

٩-تفعيل ثقافة التقريب بين المذاهب الإسلامية: فثقافة التقريب هى الطريق الوحيد نحو الوصول إلى روحية الإسلام.

وفى الفصل التالي نتناول دائرة الحوار ومجاله وشروطه، وأهدافه، وآلياته، كما في الكتاب والسنة النبوية الشريفة.